

إحياء ذكرى سعيد حجي بعد مرور ستين سنة على رحيله

عبد الرؤوف حجي

في ثاني مارس 1942 التحق سعيد حجي بالرفيق الأعلى بعد عمر قصير دام ثلاثين سنة قضى معظمه في النضال والكفاح من أجل حرية بلاده والرفع من شأنها، وانضم في سن مبكرة إلى صفوف الحركة الوطنية، وقام بدور طلائعي ضمن رفقائه في كتلة العمل الوطني عند تقديم دفتر المطالب الإصلاحية سنة 1934 ودفتر المطالب المستعجلة سنة 1937. وإثر تقديم دفتر المطالب المستعجلة أقدم الوطنيون على تأسيس الحزب الوطني، إلا أنه بمجرد ما تم الإعلان عن انتخاب علال الفاسي رئيسا للحزب الجديد ومحمد بن الحسن الوزاني أمينا عاما له قرر هذا الأخير الانسحاب من الحزب، فنتج عن ذلك انشقاق في صفوف الوطنيين. قام سعيد مع مجموعة من رفقائه بمحاولة لإصلاح ذات البين وإقناع الفريقين بضرورة التغلب على الحزازات النفسية ومواجهة الاستعمار داخل جبهة متينة وموحدة. لم تكلل هذه المحاولة بالنجاح، واختار السعيد الانضمام للحزب الوطني، ونشرت جريدة « المغرب » التي كان يصدرها بلاغا يعلن عن تأسيس هيئة سياسية جديدة دخلت منذ نشأتها في صراع عنيف مع الإقامة العامة. وتم انعقاد المؤتمر الأول للحزب الجديد بالرباط في أكتوبر 1937 تحت رئاسة علال الفاسي الذي ألقى خطابا قويا شرح فيه الحالة العامة السيئة بالبلاد. وأعقبه في المنصة سعيد الذي تناول الكلمة باسم الفرع السلاوي معلنا عن اغتباطه لاستبسال المغاربة في سبيل الحرية قائلا: « إن ما نلاقيه اليوم ثمن لا بد منه لمطالبنا ».

وأعقبهما الحاج عمر بن عبد الجليل بخطاب باسم فريق الدار البيضاء، ثم الأستاذ أبو بكر القادري ليتلو على الحاضرين نص الميثاق الوطني المعروض على المؤتمر الذي طالب بحرية الصحافة وتأسيس الجمعيات، وجعل أى تفاهم مع الحكومة مشروطا بعدولها عن خنق الحريات والاضطهادات والشروع في تنفيذ مطالب المغرب المستعجلة، كما أسند إلى الأستاذ محمد اليزيدي مسؤولية تقديم نسخة من هذا الميثاق إلى الإقامة العامة بالرباط. فكان رد فعل هذه الأخيرة أن اعتقلت الزعيم علال الفاسي ومحمد اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد مكوار، ولم ينج من هذه الحملة الاعتقالية سوى سعيد الذي بقى وحيدا في الميدان، فأخذ يتساءل عن الدور الذي يجب أن يقوم به والسياسة التي يجب أن ينفجها لحمل هذه السلطات على تغيير سياستها وإطلاق سراح رفقائه.

لنستمع إليه معلنا عن موقفه بقوله: « لقد عشنا أياما حالكة بعد إلقاء القبض على المناضلين الوطنيين، وبعد مضي مدة وأنا أتتبع الأحداث، لاحظت أن هناك أيادي تعمل في الخفاء للاستفادة من الوضع الجديد، والإبقاء على التوتر الموجود ومضاعفة الحقد على الوطنيين الذين كانوا يسمونهم بالمتطرفين المتعصبين، وبعد تفكير عميق، رأيت من واجبي أن أفف ضد هذا المخطط الجهنمي الذي كانت تدبره إدارة الأمور الأهلية بتعاون مع بعض الحاقدين المتربصين الدوائر بالحزب، وهكذا تحايلت كثيرا لأشق طريقا أخرى تضمن من جهة، إذا نجحت، إفساد مخطط المتربصين الدوائر برجال الحزب وإطلاق سراح المعتقلين، وتضمن من جهة ثانية تحقيق بعض المطالب الأساسية » .

رائد الصحافة والمجتمع المدني في عصره

لم يكن سعيد شابا أيبا غيورا على وطنه ورجالاته فحسب، بل مصلحا يهوى التجديد والتطلع إلى أفق أفضل في جميع المجالات.

ففي مذكرة له مؤرخة بفاتح يناير عام 1929 أبى إلا أن يلقى نظرة، وهو في ريعان

شبابه، على المراحل التي قضاها في التعليم، من الكتاب حيث كان يتلقى دروسا على الطريقة العتيقة دون جدوى - حسب قوله - إلى غاية ولوجه إحدى المدارس التي افتتحت آنذاك بسلا. من خلال مذكرته هاته نلمس تطلعه إلى ضرورة التجديد في أساليب التعليم التي نشرها في جريدة « الوداد » الخطية لسان حال جمعية الوداد التي أسست تحت شعار « الوداد والوثام بين سائر الطبقات والأجناس والأديان » .

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الوداد أصدرت عدة صحف منها جريدة « الوداد » الأسبوعية و « الوداد الشهري » في 24 صفحة و « المدرسة » وجريدة « الوطن » ، تولى سعيد الإشراف على تسييرها وتحريرها منذ سنة 1927 إلى أن سافر إلى المشرق العربي لمتابعة دروسه الثانوية، تاركا للأستاذ أبي بكر القادري مهمة إدارتها على أن يبقى الاتصال بينهما قائما، وكانت تنشر بها مقالات تتناول قضايا الشباب والحركة الفكرية ودراسات للمؤلفات التاريخية والعلمية والأدبية وتطور الأحداث في العالم .

تعد جمعية الوداد النواة الأولى التي أعطت الانطلاقة لخلق مجتمع مدني بالمغرب، تأسست إثرها جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي تهدف إلى النهضة القرآنية وتسعى إلى توحيد تلاوة كتاب الله عز وجل في المسجد الأعظم بمدينة سلا، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس هذه الجمعية وعودة سعيد إلى مسقط رأسه، قرر المجلس الإداري إقامة حفل ثقافي أسندت مهمة تنظيمه إلى لجنة مكونة من خمسة أفراد يرأسها سعيد محي، وتم استدعاء جميع المتعاطفين مع الجمعية ونخبة من الوطنيين من مختلف المدن المغربية، الشيء الذي ارتاعت له سلطات الحماية، وحاولت، دون جدوى، منع التظاهرة .

وبتأسيس النادي الأدبي السلاوي في أواخر العشرينات من القرن الماضي، وجد فيه سعيد ضالته المنشودة إذ استغل وجوده ليحاضر من منبره في موضوع « النهضة الأدبية العربية » وفي موضوع « المغرب كما يراه الشرق العربي » متخذا من هذا النادي مدعاة لليقظة من السبات، داعيا إلى استنهاض الهمم، عسى أن تسترجع بلادنا مكاتبتها التاريخية

وتحتل رتبة سامية بين الأمم .

في ميدان الأعمال والتخطيط للمشاريع

كان سعيد حجي من رجال الأعمال العصاميين الذين يعتمدون على أنفسهم في كل ما يقدمون عليه من مشاريع مهما كانت صعبة الإنجاز وتطلبت من جهد جهيد. كان ذكيا نبيلًا ذا عقل ثاقب يدرك به حقائق الأمور. كان إذا فكر في شيء وتبين له صوابه أنجزه تواقًا، ولا أدل على ذلك من شهادات رفقاءه مثل الأستاذ عبد الكبير الفاسي الذي قال عنه: « لا أعرف شابًا له من صفات الرجال المكتملين ما كان له من رزانة الطبع وسداد الحكم وحصافة الرأي ورباطة الجأش؛ كان رجل الصعاب لا يروقه في الحياة الخوض في سهل الأمور والقضايا، فكان لا يرضيه أن يقدم على أمر يتيسر إنهاؤه بمجرد إقدامه عليه » .

وينتقل إلى تعداد مناقبه في ميدان الأعمال قائلا:

« كان سعيد جنديا في ميدان العمل، لا يعرف الكسل ولا الملل، ولا يتضجر إلا من سوء النية إذا استشعرها من صاحبه؛ ولا أعلم أنه أشرقت عليه شمس في فراش إلا في المرض، يقضي يومه في عمله، بل في أعماله الكثيرة الممضة وزياراته واستقبالاته، ولا ينام إلا بعد أن يغط غيره غطيظ من لا هم له، بل لا ينام إلا بعد مغالبة النوم ومقاومة الإعياء... ولا نعلم فيما نعلم من شؤونه أنه كان يعيش لنفسه أو يعمل لنفسه. كان كل سعيه وراء المصلحة العامة التي جعلها هدفا وغاية في جميع المشاريع التي أسسها » .

ومن بين هذه المشاريع التي أقدم عليها السعيد تأسيس شركة مغربية تهتم - حسب قول الأستاذ الهاشمي الفيلاي - بنشر الكتب التي تخدم الثقافة الصميمة وتعنتي بنوع أخص بالجديد من الكتب بما فيها كتب التعليم وطبع الكتب المغربية التي في نشرها فائدة مادية وأدبية. وحدد سعيد دور الشركة بمناسبة إصدارها لكتاب « الأنيس المطرب

بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس « لابن أبي زرع بقوله:
« للمغرب عدة مؤلفات قيمة في مختلف المواضيع التي طرقها القدماء تكون تراثا فكريا
خالدا، لولا أنه - مع غاية الأسف - يكاد هذا التراث المغربي أن يكون نسيا منسيا،
خصوصا لدى الجيل الحاضر... لهذا فكرنا أن تساهم - أي الشركة - بقسط من الواجب
الملقى على عاتق المثقفين المغاربة، بل تعمل على نشر هذه المؤلفات المودعة في الخزائن
الخاصة أو المطبوعة طبعا رديئا، لا تساعد على متابعة بحث ولا إتمام مطالعة؛ وما خطرت
لنا هذه الفكرة حتى درسناها من وجوه عدة، مادية وعلمية، ورغما عن الصعوبات التي
جعلتنا لا نتفاءل إلا بمقدار يسير، فقد صمنا العزم على تنفيذ الفكرة وإبرازها إلى حيز
الوجود، مؤملين معاضدة رجال العلم والبحث وذوي الخبرة والاطلاع وتشجيع سائر
المثقفين والمستنيرين » .

عمل السعيد على الحصول على رخصة رسمية لإصدار جريدة إخبارية حرة معززة
بمجلات تثقيفية، وعمل، في نفس الوقت، على البحث عن مطبعة تمكنه من تحقيق ما
تطلبه الصحافة اليومية من وسائل الطبع. شرع أولا في تأسيس « مطبعة المغرب » بسلا
التي استطاع، رغم ضآلة الوسائل التي كانت تتوفر عليها، أن يصدر بها جريدة المغرب
ثلاث مرات في الأسبوع نعتها رفيقه في الكفاح والنضال الأستاذ أبو بكر القادري
باللسان المعبر عن أماني الشعب المغربي ومدرسة تخرج منها كثير من الكتاب والصحافيين
الذين استطاع سعيد حي أن يجمعهم حوله.

وهكذا قامت « مطبعة المغرب » بمهمتها أحسن قيام وبلغت بوسائلها العتيقة أقصى ما
كان ينتظر منها من حيث الجودة والإنتاج؛ وما أن أتاحت له فرصة الحصول على مطبعة
أكثر مردودية حتى أنشأ « مطبعة الأمانة » التي كان مقرها بساحة المامونية بالرباط،
وتمكن هكذا من ضمان الإصدار اليومي لجريدة « المغرب » التي صارت تحظى باهتمام
كافة الأوساط المغربية آنذاك، وإردافه بنشر ملحق ثقافي الذي تعد مجموعته، حاليا، سجلا

مهما للأدب المغربي في العقد الثالث من القرن العشرين. ومن المشاريع التي تركها في المهد حين باعته المنية وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره، وضع سعيد محي قبل وفاته بقليل تخطيطا لإنشاء « مكتب للشؤون المغربية » يتوخى منه أن يقوم بدور مركز للدراسات والتوثيق وأن تسند له مهمة لم شتات كل ما يتعلق بالمغرب من وثائق ومخطوطات وخرائط ودراسات وأبحاث معرضة للضياع، وتأسيس بنك للمعطيات من شأنه أن يسهل على الدارسين إيجاد المراجع الضرورية التي يتوقفون عليها في أبحاثهم، كما كان يخطط لتكوين فروع لهذا المكتب يختص كل فرع بميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ والجغرافية وغيرها.

كان السعيد يفكر أيضا في تأسيس مؤسسة متعددة الاختصاصات تحمل اسم « دار الأطلس »، وقد وضع لها الهيكل الذي كان يود أن تعمل في إطاره، ومن جملة المكاتب التي كانت ستفزع عنها « مكتب للنشر » و « مكتب للثقافة » و « مكتب للصحافة » و « مكتب للطباعة » كما وضع لكل مكتب مجال اختصاصه.

يقول المرحوم عبد الهادي زنير، أحد رفقائه الذين كان يدرس معهم بالشام، حسب ما ورد في مؤلف للسيد أبي بكر القادري عن سعيد محي:

« كنا عندما نجلس إليه لا يحدثنا إلا عن جرائده ومجلاته المستقبلية، غير متوان في تذكير كل واحد منا بالواجبات التي رسمها له للنهوض بعبء هذه المشاريع الجليلة، فقد كان يحدثنا عن الطبع وكيفية الإخراج وعن انتقاء المواضيع وترتيب المقالات وعن افتتاحياته وعن هيئة التحرير واختيار المحررين وعن النشرات التهذيبية التي ستكون خاصة بطبقات المثقفين وانتقاء لون الغلاف. وكان ظاهر الإعجاب بمجلات « دار الهلال » يتخذها دائما قدوة فيما ينوي القيام به معجبا بلطف وأناقة إخراجها مثنيا على حسن ذوق مخرجها ». وبينما كان السعيد يرى في النهضة التي مر بها الشرق العربي في تلك الفترة الحاسمة من تاريخه مثلا يحتذى به، كان يدعو إلى تعبئة العزائم لتحقيق ما يصبو إليه المغرب من

تدعيم صرح كيانه، علما بأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب منه رباطة جأش لولاها لن يتيسر له أن يتحدى الصعاب، وبالأحرى أن يصل إلى الغاية المنشودة.

كان السعيد يخطط لإنجاز مشاريع تنموية أخرى أهمها تأسيس « الشركة المغربية للتنمية الاقتصادية » كنموذج لما يمكن أن يحققه شباب المغرب في ميدان تدير المنشآت التجارية والصناعية من أجل الرفع من المستوى الاقتصادي للبلاد وخلق فرص الشغل.

وضع السعيد قانونا أساسيا للشركة يجعل منها شركة مساهمة محدودة المسؤولية مفتوحة في وجه جميع المغاربة للمساهمة فيها، ويحدد رأسمالها وطرق تسييرها، كما فكر في وسائل تمويلها وتأطيرها بتكوين فنيين اختصاصيين من أبناء الوطن، وكان من المرتقب أن تشمل الشركة معامل للصناعة الحديثة: معمل لصنع الصابون ومعمل للنسيج وآخر لدبغ الجلد.

خطط السعيد لكل هذه المشاريع الإبداعية. إلا أنه لم يتمكن، مع الأسف، من إنجاز العديد منها، إذ اختطفته المنية، وهو في عز شبابه، وفارق الحياة وكله طموحات وآمال كان مشتاقا لتحقيقها بعزم وحزم وبكل ما لديه من قوة ومقدرة.

رحم الله فقيد الشباب والحرية والوطنية الصادقة والأمانى الغالية وأدخله فسيح جنانه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.